كتابات محمد أبي سمرا

نصوص وشهادات

فصول من ذكريات الراحل منح الصلح

أجزاء من سيرة طويلة رواها منح الصلح العام 1980
وكتبها محمد أبي سمرا

المدن 14-10-2014



(https://mhamadabisamra.wordpress.com/wp-content/uploads/2014/10/d988d985d986-d982d8a8d98ad984-d8a7d984d988d981d8a7d8a1-d984d988d8a7d984d8afd8aad98a-d8a3d982d988d984-d8a5d986-d8a3d8b3d8b9d8af-d8a3d98a.jpg)

ولدتُ في العام 1927 في بيت بمحلة الناصرة البيروتية، بين رأس النبيع والاشرفية. أصل عائلتي من صيدا، ولها بالجنوب صلات وملك زراعي في قريتي الشرقية وتول. بيتنا العائلي الكبير كان يسكنه أربعة أخوة، كبيرهم والدي عادل، وإخوته كاظم وتقي الدين وعماد: والدي الشاب منشغل، مع صديقه الشيخ عزيز الهاشم، في أعمال "حزب الاستقلال الجمهوري". كاظم يتحمل عن إخوته ومعهم مسؤولية جريدة "النداء" التي يملكونها. تقي الدين مدرس وسياسي في "الكلية العلمانية". عماد قيادي في "العلمانية"، وينظم المظاهرات ويزور السجون.

شبان أربعة ضيوفهم عادة من العرب، وخصوصاً السوريين. كأنني ولدت في دمشق. أول زعيم أحببته هو ابراهيم هنانو. أول شهيد حفظتُ اسمه هو يوسف العظمة. أول نشيد رددته هو "بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان"، تلاه "أنت سوريا بلادي"، ثم "يا ظلام السجن خيّم". الجو في البيت عربي – سوري، وعلى الطاولات جرائد بعضها مفلوش وبعضها ملفوف كطرد بريدي: هذه جريدة من اليمن مكتوب عليها "الإيمان يمان والحكمة يمانية". تلك من مصر مكتوب عليها "الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة". وهاتيك من مكة أم القرى. وهنالك من الجزائر جريدة محشوة بآيات قرآنية تدعو الى الانتفاض على الظلم ومحبة العروبة والإسلام. وذات مرة في طفولتي وقع في يدي كراس صغير فيه صورة للفتى منح الصلح، أصغر المتبرعين سناً لمشروع "الفرنك" الذي أنشأته "الكتلة الوطنية في سوريا لجمع التبرعات، فرنكاً فرنكاً، من أجل مساندة الثورة الفلسطينية وإنشاء حرس وطني في سوريا.
حين كان أبي يصطحبني الى مكاتب جريدة "النداء"، كان يلفتني أن المحررين فوضويون ويتخاطبون متجادلين في صخب، بينما عمال المطبعة صامتون منضبطون، يتلفظون بين حين وآخر بكلمات كبيرة كالاستعمار والطبقة العاملة وإفريقيا، فقلت لوالدي إني أجد عمال المطبعة أشد ذكاء من المحررين، فقال لي، كأنما ليحميني من انزلاق ما، ليس هذا ذكاء يا بني، إنهم شيوعيون. لكنني في انتخابات العام 1936 سمعت أن ابن عم والدي رياض الصلح، مرشح للانتخابات في قائمة واحدة مع الشيوعيين، وأنهم وطنيون مثلنا وأصدقاء.

وعندي في درج الذكريات رسالة من عمي تقي الدين أرسلها لي وأنا تلميذ في مدرسة السيدة أمينة الخوري المقدسي الابتدائية في رأس بيروت. كان عمي في اسبانيا فبعث إليَّ بتلك الرسالة واصفاً لي فيها كل ما في الأندلس من آثار عربية، متحدثاً عن شعوره نحو تلك البلاد التي شهدت مجد الحضارة العربية.

عن تأثير انتسابي الى عائلة سياسية، وأنه قد يكون صادر على شخصيتي، فإني إجيبك: لا، على العكس، فهو مجال تفتح وثروة من التجارب. لكن ذلك ليس بلا محاذير وأخطار وسلبيات. فالمفروض أن يكون الإنسان ويبقى مستقلا، ويجعل من عقله وضميره الحر المقياس الأساس. أما بيت الشعر الذي يمثل أقصى التخلي عن الشخصية: "وما أنا إلا من غزية إن غوت غُو/يتُ وإن ترشد غزية أرشد"، فهو العبودية بعينها.

***** *****



https://mhamadabisamra.wordpress.com/wp-content/uploads/2014/10/d985d8afd98ad986d8a9-(d985d986d8ad-d8a7d984d8b5d984d8ad.jpg)

والدتي تركية من عائلة حكمت أيام الدولة العثمانية، وهي عائلة درويش باشا صاحب "الجفتلك" المشهور في البقاع، والوالي والمشير والسردار... وهو باني محلة الدرويشية المعروفة في دمشق، بمسجدها ومدرستها وتكيتها. هذا ما كنت أشعر أنه يثير نفحة من الفخر عند والدي. لكنني أنا الطفل، غريق العروبة الشوفينية منذ نعومة أظفاري، كنت أخفي بشيء من الارتباك تلك الصلة بالنسب التركي، واعتبرها حقيقة لا يجوز الاعتراف بها إلا بعد السؤال. عندما كبرت قليلا بدأت أعطي نفسي حق الحديث الصريح عن والدتي التركية التي كنت ولا أزال أحبها أكثر من أي مخلوق آخر على وجه الأرض.

كانت والدتي تتدخل أحياناً في السياسة لتحد من غلواء والدي وغلوائي القومي، فتقول: تفتخرون بالعرب؟! أيام الدولة العثمانية كانت هذه الدنيا كلها، بنوابها ووزرائها ورؤسائها يديرها رجل برتبة قائمقام تعينه اسطنبول، فلم تكن أكثر من نقطة في بحر. لكن مرض العروبة كان متمكناً مني إلى درجة أن قول والدتي هذا، ساهم في زرع حب الدنيا العربية الواسعة في قلبي، وفي تعلقي بالدولة العربية، دولة الوحدة والحلم الواسع. وقد أكون بسبب أصل والدتي مهيئاً لفهم ما تعنيه العلاقة بين العروبة والإسلام. ومن قبيل الوفاء لوالدتي أقول إن أسعد أيام حياتي كانت تلك التي قضيتها في مزرعة والدها في البقاع. كانت المزرعة من خمس قرى: عنجر التي استملكها الفرنسيون من جدي وأعطوها للأرمن نكاية بوالدي وعائلته السياسية المعارضة. والروضة، التي كان اسمها الإسطبل، وحوش الحريمة والدكوة والخيارة. كان في المزرعة خيل وبيادر وحمام، وكان لي فيها أصدقاء أعجبت بهم أكثر من إعجابي بأطفال المدينة، فهم كانوا أقدر في ركوب الخيل وإدارة النورج فوق الحصيد، وفي التقاط الحمام. ففي كل عام كنت آتي المزرعة بلا مهارات وأغادرها بمئة مهارة ومهارة.

يخطر لي دائماً وأنا أصرف العملة قبل المصنع، من لبنانية الى سورية، أن أسأل واحداً من أولئك البقاعيين الذين انفتحوا على الصرافة: ألا يزال في أعلى ذلك التل مقام لولي اسمه النبي عزيز؟ ألا يزال البقاعيون يحتفلون بخميس الدعسة؟ ألا تزال أفواجهم تأتي في يوم معين من كل عام الى ذلك المقام ومعهم الزاد والشراب وفرح الدنيا والدين؟ ألا يزال الفرسان من آل عراجي، والشيوخ من آل الميس، وأصحاب الخطوة من آل الرفاعي... أم الدنيا كلها على يسار طريق الشام أصبحت طاشناق وهنشاق؟!

أظن أن مزرعة جدي تلك كانت آخر مزرعة في لبنان منظمة ومركبة فئوياً على ما كانت عليه حال المزارع في القرون الوسطى، حيث لكل مهنة عرق من بني البشر: البناؤون والنجارون والحدادون والخبازون من الأرمن. سائسو الخيل من الشركس. النواطير تركمان. المحاسبون وماسكو الدفاتر أقباط مصريون. الضمّانون مسيحيون من زحلة. وسائر عباد الله بقاعيون مسلمون مثلي ومثلك. وكلما تيسّر لي السفر إلى دمشق من طريق المصنع، التفت إلى الأراضي على يساري بعد دير زنون، فتتولاني حسرة على أنه لم يبق من تلك الأقوام إلا قوم واحد هم الأرمن. التفت الى أعلى التل، تل الجميز، فأقرأ الفاتحة على ثلاثة مدفونين في أعلاه: النبي عزيز، جد والدتي وجدتها. رضي الله عن الأول، ورحم الثانيين وغفر لهما.

***** *****

عندما كنت طالباً في الجامعة الأميركية في بيروت، كانت حرب فلسطين مشتعلة. وإذ حلّت الكارثة ولّدت في الجامعة الأميركية واحدة من أعمق ردات الفعل على الهزيمة. فالشباب في الجامعة عربي من كل بلاد العرب، وفلسطينيين بنوع خاص، ومن القوميين العرب بنوع أخص. لذا نشأ في تلك الجامعة آنذاك بعدان جديدان لفكرة القومية العربية: البعد الأول هو أن فلسطين هي قلب الحركة العربية، والثاني هو فكرة الكفاح المسلح، أو العنف الثوري إذا صح التعبير. كان البعثيون قد قالوا ما يشبه هذا الكلام من قبل، فجاءت النكبة ومعها التفسير البعثي لها. أنا شخصياً كنت من الطلبة الناشطين في "جمعية العروة الوثقى" في الجامعة، ومن المسؤولين عن مجلتها "العروة". في ذلك الجو التقيت مناضلين كثيرين، منهم جورج حبش وهاني الهندي وكريم مروة وأحمد الخطيب وغيرهم. كم كانت الجزائر قريبة واليمن قريب في تلك الأيام. وكم كان قريباً كل بعيد. وحدها فلسطين اقتربت إلى الوجود مذذاك، فيما ابتعد كل شيء سواها، فتحوّل "النادي الثقافي العربي" مركزاً لتسجيل أسماء المتطوعين للحرب في فلسطين، وسوقهم إلى التدريب، برئاسة الشهيد معروف سعد والضابط الشهيد محمد زغيب. وفي الليل كان النادي يتحول خلية ثورية، يخطط فيه ثوار وينامون، فتألفت "كتائب الفداء العربي" وأبرز أعضائها جورج حبش وهاني الهندي، وقامت بمحاولة تصفية عدد من الخونة والجواسيس وتدمير بعض المؤسسات ذات الصفة اليهودية.

***** *****

لأن بيتنا كان في رأس بيروت، عرفت منذ طفولتي رئيس الجامعة الأميركية بيير دودج الذي كان في نظر الناس ونظري أشبه بالقديس: أميركي بيوريتاني، مفعم بالخلقية الروحية الدينية البروتستانتية، محب للناس، وهجر بلاده حيث له مصانع ومزارع وجاء إلى بيروت يخدم الإنسان ويسوع المسيح، ولا يتقاضى راتباً سوى دولار واحد في السنة. وحين ذهب الناس لتعزيته بابنه الذي قتل جندياً في الحرب العالمية الثانية، استقبلهم مع زوجته إبنة هاورد بلس (ثاني رئيس للجامعة) ببشاشة وأنس عجيبين.

أثبتت الحرب في لبنان أن هنالك ثلاث بيروتات لا بيروتين. فإلى بيروت الشرقية وبيروت الغربية، هناك أيضاً رأس بيروت. والأساس في ذلك هو الجامعة الأميركية، وإشعاعها الخاص في جوارها. فرأس بيروت تشبه أميركا في بعض النواحي. هي أول حي عرف الكثير من أمور الحياة على الطريقة الأميركية: الأكل والمقهى والرياضة والنظافة بالدوش الصباحي، وشرب الشاي في أوانه، والتعامل "السبور" مع الكنيسة، وسهولة روابط الصداقة. للمرة الأولى رأيت رجالاً كباراً يلعبون التنس في ملعب بيت أستاذ الجامعة الكبير بولس الخولي، ولأول مرة شربت الحليب عصراً في بيته. وفي بيوت الروتستانت شممت للمرة الأولى رائحة الفانيليا والباكمبودر التي انتشرت في ما بعد في الصالونات البيروتية. الديموقراطية في الحياة والتحيات والعلاقات والمخاطبة بين الجنسين، حلّت في رأس بيروت أولاً، ثم سافرت إلى سواها من الأحياء والمناطق. والجامعة الأميركية استقطبت للعمل فيها جماعات من كل لون وجنس، كالأرمن ومسيحيي وادي النصارى في سوريا، وارثوذوكس قرنة الروم في بلاد جبيل. لكن اوثوذوكسيّ رأس بيروت لم يفهموا في بداية الأمر لماذا جيء بكل هذه الحشود إلى ديارهم، ففسروا ذلك برقّةٍ في ارثوذوكسيتهم، طمّعت البروتستانت بهم. أما عائلات رأس بيروت السنية (كعيتاني، شاتيلا، شهاب، غلاييني، وغالي...) فأن صلتها بالجامعة ضعيفة نسبياً، لأنها كانت تسكن رأس بيروت العليا، ما بعد شارع الحمراء. فالرأس بيروتي السني كان متهماً بالانكفاء اجتماعياً، وبأن انغماسه في العمل الزراعي يقطع صلته بالشؤون العامة، وبأنه أقل اجتماعية من القروي الذي له مجلس ومضافة يكثر فيها الحوار والنقاش. والعلاقة بين عائلات رأس بيروت السنية والجامعة الأميركية لم تتوثق إلا بعد دخول أفواج من أبنائها إلى الجامعة، بعد ارتفاع اسعار الأملاك والبساتين. لكن هذا كله أصبح اليوم من الذكريات.

***** *****

لم يصبح للعرب تاريخ عربي واحد في العصر الحديث، إلا منذ العام 1956. ابتداءً من تلك السنة فقط صار ما يحدث في أي بلد عربي يؤثّر في سائر البلدان العربية. ذلك التداخل والتشابك والتفاعل أوجد ما أسميه التاريخ العربي الواحد. وحتى العام 1958 كانت بيروت روحها واحدة موحدة، يجمعها عصب واحد. وكان الذي يسيطر على سوق الخضر (النورية) والمسلخ، هو من يملك التحكّم بالمدينة، كأن تضرب أو لا تضرب. فالجهة السياسية التي تستطيع إقفال المسلخ والنورية كانت سيدة بيروت السياسية. ومنذ ذلك الوقت درجت تسمية "الشارع الوطني" حينما كان المسلمون هم المسيطرون على النورية والمسلخ. ومن تاريخ بيروت الوطني أيضاً ان المظاهرات الوطنية فيها كانت تخرج من المساجد، وأحياناً قليلة من الكنائس. وسطوة الجاه والمال في بيروت تغلب سطوة الأدب والمواهب. ولذلك قال عمر الزعني: "لو كنت حصان في بيت سرسق ما بسرق متل الزعران". ولذلك أيضاً كتب الرسام البيروتي مصطفى فروخ الذي انقصت من قيمته "المافيات الثقافية"، كتاباً يروي فيه عذاب صاحب موهبة مع المجتمع البيروتي. وهنالك نكتة سياسية شاعت ودرجت في لبنان قبل السلاح، تقول إن العمل الوطني هو مجموعة من الشيعة يتقدمهم رف من المسيحيين، يسيرون في شارع سني بشعارات فلسطينية.

See more at: http://www.almodon.com/culture/852253b1-df4a-4afa-95e7-d51bd4e149d4#sthash.YlOsWsUp.dpuf – (http://www.almodon.com/culture/852253b1-df4a-4afa-95e7-d51bd4e149d4#sthash.YlOsWsUp.dpuf)

This entry was posted on أكتوبر 25, 2014 at 10:29 ص and is filed under منح الصلح. You can follow any responses to this entry through the RSS 2.0 feed. You can leave a response, or trackback from your own site.